الكاتب المصرى

صفر ١٣٦٧ — يناير ١٩٤٨

السنة الثالثة — مجلد ٧ — عدد ٢٨

أردت أن أكتب فصلا أدرس فيه أدب أندريه جيد بعد أن عرفت أنه ظفر بجائزة نوبيل فى شهر نوفمبر الماضى ، ولكنى رأيته أكبر وأكثر من أن يحيط بأدبه فصل مهما يكن طويلا . فآثرت أن أثنى عليه بترجمة هذا الكتاب الرائع وأنا أرجو أن يجد الشباب المثقفون بين عشبه الخبيث المجنون ، كما يقول أندريه جيد ، حبا حسنا لا يكاد يستقر فى القلوب والعقول حتى ينبت فيها نباتاً حسناً . [طه حسين]

بروميتيه ذو الغل المهمل

إلى بول-ألبير لورانس

إليك أهدى هذا الكتاب أيها الصديق العزيز لأنك تفضلت فأثنيت عليه . لعل قليلا من الذين يشبهونك أن يجدوا فى هذا العشب الخبيث المجنون كما وجدت حبًّا حسنا . [أندريه جيد]

فى يوم من أيام شهر مايو ١٨٩٠ ، فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر رأى الناس هذا المنظر الذى وقع من نفوسهم موقعا غريبا :

رأوا فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوپرا ، رجلا ضخما نصفا لا يميزه إلا ضخامته النادرة ، وقد أقبل عليه رجل نحيف وهو يبتسم غير مضمر فيما نظن شيئا يريب، ورد إليه منديلا كان قد سقط منه . فيشكر الرجل الضخم فى إيجاز ويهم أن يمضى. ثم يبدو له فيميل إلى الرجل النحيف كأنما يطلب إليه شيئا، وكأن الرجل النحيف قد أنبأه بما أراد ؛ فقد أخرج من جيبه دواة وقلما ودفعهما فى سذاجة إلى الرجل النحيف ، ومعهما غلاف كان فى يده . ورأى المارة الرجل النحيف يكتب عنوانا على الغلاف . وهنا يبدأ ما فى القصة من غرابة لم تشر إليها صحيفة ما ؛ فقد رد النحيف إلى البدين دواته

وقلمه وغلافه . ولم يكد يبتسم بعد ذلك مودعا حتى أهدى البدين إليه شكره لطمة مفاجئة عنيفة ، ثم وثب إلى عربة واستخفى قبل أن يستفيق النظارة (وكنت بينهم) من الدهش ويفكر أحدهم فى التعلق به .

وقد علمت بعد ذلك أن هذا الرجل كان زوس ؛ غنى من رجال الأعمال .

وضاق الرجل النحيف بالتفاف الناس حوله وعنايتهم به ، فجعل يؤكد أنه لم يكد يشعر باللطمة على حين كان أنفه يرعف وكانت شفته تقطر دما ، وكان يلح فى أن يخلى بينه وبين نفسه . فلما رأى الناس منه ذلك تفرقوا عنه قليلا قليلا . والقارئ يأذن لنا فى ألا نعنى منذ الآن برجل سيراه كثيرا فيما يستقبل من هذا الحديث .

تاريخ الحياة الخلقية الخاصة المستقيمة

١

لن أتحدث عن الحياة الخلقية العامة فليس لها وجود ، ولكنى أروى بمناسبتها قصة :

أحس بروميتيه فى أعلى جبل القوقاز أن الأغلال والقيود والوسوق والحواجز والموانع الأخرى قد أثقلته ومسه منها الضر، فأراد أن يغير من موضعه ، فارتفع بجنبه الأيسر ومد ذراعه اليمنى ، ورآه الناس ينحدر فى الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا بين الساعة الرابعة والخامسة فى يوم من أيام الخريف .

وجعلت جماعات من الشخصيات الباريسية المعروفة تمر أمام عينيه ، وجعل هو يسأل نفسه إلى أين تذهب هذه الجماعات ؟ ثم جلس فى إحدى القهوات إلى قدح من الجعة وسأل الخادم : « إلى أين تمضى هذه الجماعات ؟ »

تاريخ الخادم وصاحب الملايين

قال الخادم : لو رآهم سيدى كما أراهم يمرون فى كل يوم لجاز أن يسأل نفسه من أين أقبلوا . فهو سؤال واحد لأنهم يمرون فى كل يوم . وأنا أقول لنفسى : ما داموا يمرون فى كل يوم فهم لم يجدوا ما يبتغون . وأنا أنتظر الآن أن يسألنى سيدى : ماذا يبتغون ؟ وسيرى سيدى بماذا أجيبه .

هنالك سأل بروميتيه :

— ماذا يبتغون ؟

قال الخادم :

— ما داموا لا يستقرون فهم لا يلتمسون السعادة . ويستطيع سيدى أن يصدقنى . ثم دنا منه وقال هامسا : — انما يلتمسون شخصياتهم . أليس سيدى من أهل باريس ؟

قال بروميتيه :

— لا !

قال الخادم : إن هذا لبين . نعم ! شخصياتهم : ما نسميه نحن هنا بالمزاج . فأنا مثلا ، كما ترانى الآن ، لاتشك فى أنى خادم قهوة . كلا ياسيدى ! لست بطبعى خادم قهوة ، وإنما أتكلف هذه المهنة عن حب لها . صدقنى ، إن شئت ، أن لى حياة مضمرة : إنى ألاحظ الشخصيات ، إنها وحدها تثير حب الاستطلاع ، ثم الصلات بين الشخصيات . لقد رتب كل شئ هنا على أحسن وجه ؛ فى هذا المطعم مائدة لكل ثلاثة من الناس ، وسأبين لك بعد حين تدبير ذلك . ستتناول العشاء بعد قليل ، أليس كذلك ؟ ستقدم . . .

وكان بروميتيه متعباً بعض الشئ . قال الخادم :

— مائدة لكل ثلاثة من الناس . نعم هذا أوفق ما وصلت إليه . يقبل ثلاثة من الناس فيعرف بعضهم إلى بعض (إذا أرادوا ذلك بالطبع) . ففى مطعمى يجب أن يذكر الطارئون أسماءهم قبل الجلوس إلى المائدة ، وأن يذكروا صناعتهم . وليس عليهم بأس إن أخطأوا . ثم يجلسون (ولا أجلس أنا) ، ثم يتحدثون (ولا أتحدث أنا) ، وإنما أصل بين الناس وأسمع لهم وأنظر إليهم وأدير بينهم الحديث . فاذا انتهى الطعام فقد عرفت دخيلة ثلاثة من الناس ، ثلاثة من الشخصيات . أما هم ، فلم يعرفوا شيئا . أما أنا فافهم عنى : إنى أسمع ، إنى أنشئ الصلات ، على حين يخضعون هم لهذه الصلات التى أنظمها . وقد تسألنى ماذا يجدى على هذا كله ؟ لا يجدى على شيئا ، وإنما أنا موكل بانشاء الصلات . . . لا بالقياس إلى نفسى . . . إنما هو عمل يشبه أن يكون شيئا من العبث المطلق .

وكان شئ من التعب يظهر على بروميتيه .

قال الخادم :

— عمل عابث ! هذا لفظ لا يدلك أنت على شئ . أما أنا فانه يدلنى على شئ خطير عظيم الخطر . لقد فكرت وقتاً طويلا فى أن العمل العابث هو الذى يميز الانسان من الحيوان . وكنت أعرف الانسان بانه الحيوان القادر على العمل العابث . ثم بدا لى فرأيت عكس هذا الرأى ، وهو أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى لايستطيع أن يعبث . أن يعبث ؟ فكر إذن : أن يتصرف لغير علة . — نعم ! قد فهمت . — لنقل لغير دافع إلى العمل . ومنذ ذلك الوقت جعلت هذه القضية تغيظنى ، وجعلت أسأل نفسى : لم يفعل الانسان هذا ؟ ولم يفعل الانسان ذاك ؟ . . . وليس مصدر ذلك مع هذا أنى جبرى . . . ولكن لهذه المناسبة اسمع هذه القصة :

لى صديق يا سيدى من أصحاب الملايين فد لا تصدق ذلك . وهو إلى ثرائه ذكى ، أثار فى نفسه فكرة العمل العابث ، وسأل نفسه كيف السبيل إليها ؟ ويجب أن تقدر أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا عمل لا ينتج شيئا ، فهذا شئ . . . إنما يريد عملا عابثا لا دافع إليه . أتفهم عملا لا تدفع إليه منفعة ولا شهوة ولا سبب ما ، عملا غير نافع ، عملا ينشئ نفسه ، عملا لا غاية له ولا مسيطر عليه ، عملا حرا ، عملا أصيلا ؟

قال بروميتيه : — ماذا ؟
قال الخادم :
— ألق بالك ، إن صاحبي يهبط في كل صباح وفي جيبه ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك قد طوى عليها غلافا وفي يده لطمة مهيأة . وهمه أن يلقى رجلا لا يختاره ، فيلقى في الشارع منديله ثم يقول لمن يلتقط هذا المنديل متلطفاً :
— عفوا يا سيدى ! ألا تعرف أحداً ؟
يجيبه الآخر : بل أنا أعرف غير واحد .
فيقول صاحب الملايين: فستتلطف إذن يا سيدى وتكتب اسمه على هذا الغلاف ، وإليك القلم والدواة . . .
ويكتب الآخر في سماحة ثم يتجه إلى صاحب الملايين قائلا :
— والآن يا سيدى أتفسر لى . . . ؟
فيجيب صاحب الملايين :
— هذا مبدأ ثم (وقد أنسيت أن أقول إنه قوى) يضع على خده اللطمة التى أعدها في يده ، ويدعو عربة فيستقلها ويستخفى .
أفهمت الآن؟ عملان عابثان في لحظة واحدة : هذه الورقة المالية ترسل إلى عنوان لم يختره هو ، ولطمة تهدى إلى رجل قد اختار نفسه ليتلقاها حين التقط المنديل . — ألا ترى أن هذا هو العبث ؟ إنه عمل قابل للعكس . أحد الرجلين تلقى خمسمائة فرنك لأجل لطمة ، والآخر تلقى لطمة من أجل خمسمائة فرنك . . . ثم لا سبيل إلى الفهم . . . فقد نضل الطريق . — فكر ! عمل عابث ليس أشد من ذلك بلبلة للنفوس . — ولكن سيدى قد أخذ يجد الجوع . إنى معتذر إلى سيدى . ما أيسر ما يندفع الناس في الحديث . . . أيريد سيدى أن يلقى إلى اسمه لأقدمه ؟
قال بروميتيه في يسر :
— اسمى بروميتيه
قال الخادم :
— بروميتيه ! لقد قدرت أن سيدى ليس من هذه المدينة . . . ومهنة سيدى ؟
قال بروميتيه :
— لا شيء .
قال الخادم في ابتسامة حلوة :
— كلا ! يكفى أن يرى الانسان سيدى ليعلم أنه فعل شيئا .
قال بروميتيه هامسا :
— مضى على ذلك زمن طويل .
قال الخادم :
— لا بأس لا بأس ! وليطمئن سيدى ! فأنا حين أقدم الناس أذكر أسماءهم ، فأما صناعاتهم فلا أذكرها بحال . — لننظر لننظر :— ماذا يصنع سيدى . . .
قال بروميتيه مغمغما خجلا :
— كنت أصنع الثقاب .

هنالك ساد صمت ثقيل بعض الشئ. وقد فهم الخادم أنه أخطأ حين ألح فى السؤال، وفهم بروميتيه أنه أخطأ حين أقدم على الجواب.

ثم قال الخادم فى لهجة رقيقة:

— والآن قد ترك سيدى صناعة الثقاب. ومع ذلك فينبغى أن أكتب شيئاً، فلست أستطيع أن أكتب هكذا: بروميتيه، ثم لا أزيد. فلسيدى من غير شك صناعة متواضعة ما أو تخصص فى شئ من الأشياء... وأخيراً ماذا يحسن سيدى أن يعمل؟

فأعاد بروميتيه قوله:

— لا شئ.

قال الخادم:

— إذن فلنقل إنك أديب. والآن إذا تفضل سيدى بالدخول إلى قاعة الطعام. فلست أستطيع أن أخدمه خارج القاعة. ثم صاح: — مائدة لثلاثة! مائدة!...

وهنا دخل رجلان من بابين مختلفين. وقد رئيا يمليان اسميهما على الخادم، وإذ لم يطلب أحد تعارفاً، فقد جلس الرجلان إلى المائدة.

فلما استقر بهم المجلس:

٢

قال أحدهم:

— يا سيدى! إنما أقبلت على هذا المطعم مع أن الأكل فيه ردئ لشئ واحد هو الحديث. فأنا أبغض الخلوة إلى الطعام، وأحب المائدة التى يجلس عليها ثلاثة؛ لأن الاثنين إذا خلا أحدهما إلى الآخر جاز أن يختصما... ولكنكما صموتان فيما يظهر!

قال بروميتيه:

— على رغمى آثرت الصمت.

قال المتكلم:

— سأمضى إذن فى الحديث.

قال الثالث:

— تفضل.

قال المتكلم:

— أنا أرى أن ساعة يجلس فيها ثلاثة رجال إلى المائدة تكفيهم ليتعارفوا إذا لم يسرفوا فى الأكل —. وهذا يسير هنا إذا أقللنا الكلام واجتنبنا الموضوعات الشائعة، أريد ألا نذكر إلا ما يمس الحياة الفردية الخاصة. ولست أزعم أن هذا الحديث ضربة لازم. ولكن إذا لم يعجبنا الحديث فما قدومنا إلى هذا المطعم؟

وكان بروميتيه متعباً جدا وقد مال الخادم إليه وهمس قائلا:

— هذا الذى تكلم هو كوكليس، وهذا الذى سيتكلم هو داموكليس.

قال داموكليس:

قصة داموكليس

سيدى لو قلت لى ذلك منذ شهر لما استطعت أن أجيب . أما بعد الذى حدث لى فى الشهر الماضى ، فلم يبق شئ مما كنت أعتقده من قبل . وما كنت لأحدثكم بشئ مما كنت أفكر فيه قديما لولا أن العلم به يعينكما على أن تفهما الفرق بينه وبين ما أفكر فيه الآن . وإذن ياسيدى فأنا أشعر منذ ثلاثين يوما بأنى كائن ممتاز فريد ميسر لمصير غريب . فاستنبطا من أنى كنت أشعر قبل ذلك شعورا يناقض هذا الشعور مناقضة تامة . فقد كنت أحيا حياة عادية خالصة ، وأفرض على نفسى الاذعان لهذه القاعدة وهى أن أسير سيرة أشد الناس محافظة على المألوف . أما الآن فأنا واثق بأن الرجل العادى لا وجود له ، وبأن من الجهد الضائع أن يحاول أحد أن يشبه كافة الناس ، لأن كافة الناس تأتلف من الأفراد جميعا ، وليس فى وسع الفرد الواحد أن يشبه جميع الأفراد . ومع ذلك فقد كنت أفتن وأتكلف الاحصاء وأتلمس أوساط الأمور — دون أن أفهم أن الأطراف تتقارب ، وأن من نام متأخرا لقى من استيقظ مبكرا : وأن من تحرى أن يجلس فى المكان الأوسط كان خليقا أن يجلس بين كرسيين .

فكنت آوى إلى سريرى كل يوم فى الساعة العاشرة ، وأنام ثمانى ساعات ونصف ساعة ، وأحرص فى كل عمل من أعمالى على أن أقلد أكبر عدد من الناس ، ولن أطيل فى ذلك .

ولكن عرضت لى ذات يوم مغامرة خاصة . وخطر ذلك فى حياة رجل متزن لا يفهم إلا بعد حين .

٣

إذن فتعلما أنى تلقيت كتابا ذات صباح .

— وأنا أرى يا سيدى أنى أقص عليكما قصتى فى غير مهارة ؛ لأنى لا أرى الدهش فى وجهيكما . فقد كان يجب أن أنبئكما بأنى لم أكن أنتظر كتبا . فأنا أتلقى ثلاث رسائل فى كل عام : إحداها من صاحب البيت يطالبنى فيها بالأجر ، والثانية من المصرف ينبئنى بأنى قادر على أدائه ، والثالثة فى أول يناير . . . وأوثر ألا أنبئكما بمصدرها . وكان عنوان الرسالة التى تلقيتها قد كتب بخط لا أعرفه . وخلو هذا الخط من الخصائص كلها ، كما عرفت فيما بعد حين لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط ، لم ينبئنى عن صاحب الرسالة بشئ . فلم يجد المختصون فى هذا الخط آية إلا على كرم النفس وشئ من الضعف ، ولم يستطيعوا أن يحددوا شيئا . الخط . . . لست أتحدث إلا عما كان على الغلاف ، فلم يكن داخل الغلاف شئ ، لم يكن داخله سطر ولا نقطة . لم يكن فى الغلاف إلا ورقة مالية قيمتها خمسمائة فرنك .

وكنت أهم أن أتناول قدح «الشيكولاتة» الذى تعودت أن أتناوله كل صباح ، ولكنى

كنت عظيم الدهش حتى صرفنى ذلك عنه فأدركته وقد برد مافيه . جعلت أبحث ... ولم يكن أحد مدينا لى بشئ . ولى دخل محدود ياسيدى ، وأنا أستعين بالاقتصاد على الموازنة بينه وبين النفقات برغم ما يصيب الاسهم من نقص فى كل عام . قلت إنى لم أكن أنتظر شيئاً ولم أطلب قط إلى أحد شيئاً . وقد تعودت الحياة المنظمة حتى منعنى ذلك من أن أؤمل شيئاً وقد فكرت كثيراً متوخيا فى التفكير أقوم مناهجه : من أين ؟ إلى أين ؟ من أى طريق ولماذا ؟ وكانت هذه الورقة لاتجيب على سؤال من هذه الأسئلة ؛ فقد كنت ألقى هذه الأسئلة للمرة الأولى .

وقد فكرت فى أن هذا خطأ ، وفى أنى سأحاول إصلاحه . فقد قدرت أن هذه الورقة قد كانت مخصصة لرجل غيرى يشاركنى فى الاسم . وقد بحثت فى الدليل عن شريك لى فى اسمى لعله كان ينتظر هذه الورقة . ولكن اسمى ليس شائعاً ، فرأيت أنى الوحيد الذى يحمله . وقد قدرت أنى سأجد على الغلاف اسم من أرسله بعد أن لم أجد اسم من أرسل إليه . وهنالك لجأت إلى المختصين فى تأويل الخطوط . ولكن لاشئ — لم يستطيعوا أن ينبئونى بشئ ، ولم أصل إلا إلى زيادة ما أنا فيه من الضيق . فهذا المبلغ من المال يزداد ثقله على من يوم إلى يوم ، وأنا أحاول أن أتخفف منه فلا أحد إلى ذلك سبيلا . فقد يجب — لو أن أحداً من الناس قد أهدى إلى هذا المبلغ غير مخطئ — أن أشكر له هديته . إنى لحريص على أن أكون معترفا بالجميل — ولكنى لا أدرى لمن أعترف بالجميل .

وأنا أحمل هذه الورقة دائما مؤملا ان تعرض لى المصادفة التى تخرجنى من هذا العناء . أحملها لا أفارقها فى النهار ولا فى الليل لقد أصبحت مملوكا لها . — لقد كنت فيما مضى رجلا عاديا ولكنى كنت رجلا حرا . أما الآن فانى رق لهذه الورقة ! لقد حددت هذه المغامرة شخصيتى . كنت إنسانا ما ، فأصبحت الآن إنسانا بعينه .

وأنا منذ هذه المغامرة أزعج نفسى أبحث عمن أستطيع أن أتحدث إليه ، وإذ آثرت الاختلاف إلى هذا المطعم فى أكثر الأحيان . فمصدر ذلك أنى أرجو أن أجد على مائدة من هذه الموائد المخصصة لثلاثة أشخاص واحداً من جليسى يعرف صاحب هذا الخط على هذا الغلاف الذى أعرضه عليكما . . .

ثم أخرج من صدره زفرة ومن سترته غلافا أصفر قذرا قد كتب اسمه عليه كتابة عادية واضحة . هنالك وقع هذا الحادث الغريب : فقد كان كوكليس ملتزما للصمت ، وظل ملتزما للصمت — ولكنه فجاءة رفع يده على داموكليس ، لم يكد الخادم يردها إلا فى جهد . فاضطر كوكليس إلى أن يضبط نفسه وقال فى حزن هذه الكلمات التى لم تفهم إلا فيما بعد :

— على أن الخير فى هذا . فلو قد رددت إليك اللطمة لخيل إليك أن من الحق أن ترد إلى الورقة مع أنها ليست لى . — و إذ ظهر على داموكليس أنه ينتظر تفسيراً لهذه الحركة قال كوكليس : أنا الذى كتب عنوانك على هذا الغلاف .

قال داموكليس فى شئ من الغضب : ولكن كيف عرفت اسمى ؟

قال كوكليس : عرفته مصادفة . على أن هذا لا خطر له فى هذه القصة ، فقصتى أغرب من قصتك فأذن لى فى أن أقصها فى إيجاز :

قصة كوكليس

ليس بيني وبين الناس صلات ذات شأن، بل لم أكن أعلم أن لى بالناس صلة قبل أن يقع ما سأنبئكم به الآن. لست أعرف من أخرجني إلى هذا العالم وقد تلمست وقتاً طويلا بعض ما يحبب إلى الحياة . وقد هبطت إلى الشارع ملتمساً فيه ما يوجه حياتى مقدراً أن مصيرى مرتبط بأول ما يكون بيني وبين الناس من صلة . فلم أنشئ نفسى فأنا أدنى إلى الخير من ذلك . وكنت أعلم أن أول عمل أعمله سيعلل وجودى . وإذ كنت خيراً بالفطرة فقد كان أول عمل أتيته أنى التقطت منديلا . ولم يكن صاحبه قد بعد عن مكانه إلا خطوات ثلاثا، فأسرعت نحوه ورددته إليه . وأخذه فى غير دهش ظاهر ، وإنما الدهش أصابنى أنا حين رأيته يقدم إلى غلافا هو هذا ويقول لى باسما : تفضل بكتابة عنوان على هذا الغلاف . قلت أى عنوان ؟ — قال : عنوان أحد ما . — وقدم فى أثناء ذلك إلى أدوات الكتابة . ولم أكن أرغب فى التخلص من علة ظاهرة ، فأجبته إلى ما أراد . وقد قلت لكما أن ليس بينى وبين الناس صلة ذات شأن . وكان الاسم الذى كتبته ، ولست أدرى كيف خطر لى اسم رجل لا أعرفه . ثم دفعت إليه غلافه وحيته معتقداً أنى قد أديت ما على، وهممت أن أنصرف، ولكنى تلقيت على خدى لطمة مروعة.

وقد دهشت لذلك فلم أعرف ما صار إليه لاطمى . فلما ثبت إلى نفسى رأيت جماعة ضخمة تحيط بى . وكانت الجماعة كلها تتكلم . وقد تعلق بى بعضهم يريد أن يصحبنى إلى صيدلية مجاورة . ولم أخلص من عنايتهم إلا حين أكدت لهم أن ليس بى بأس ، على حين كان أنفى يرعف وكنت أجد ألماً شديداً فى الفك .

وقد اضطرنى ما أصاب خدى من التورم إلى أن ألزم غرفتى ثمانية أيام .

وقد أنفقت هذه الأيام مفكراً :

لم أهدى الرجل إلى هذه اللطمة ؟

لا شك فى أنه أخطأ فلم أقدم إليه ما يسوءه !

لم أقدم شرا إلى أحد ، وليس أحد من الناس يمكن أن يتمنى لى الشر ، فالشر شئ يرد على من قدمه .

وقد فكرت لأول مرة أن هذه اللطمة إن لم تكن قد أهديت إلى عن خطأ — فهى شئ قد كتبه على القضاء . على أنى أضفت إلى ذلك أن المهم هو أنى قد تلقيت اللطمة سواء أكان ذلك عن خطأ أم عن عمد . وهل أردها — وقد أنبأتكما بأنى خير بالطبع ، وأضيف الى ذلك أن من لطمنى كان أقوى منى ؟

فلما برئ خدى واستطعت الخروج جعلت أبحث عن لاطمى . نعم ! ولكن لأتجنبه على أنى لم ألقه . وإذا كنت قد تجنبته فقد كان ذلك على غير علم منى .

ثم انحنى نحو بروميتيه قائلا :

— أنظر كيف يتعقد اليوم كل شئ وكيف تختلط الأمور بدل أن تتضح : — فقد علمت أن لطمتى قد أدت إلى هذا السيد خمسمائة فرنك . . .

قال داموكليس :
— ولكن عفوا .
قال كوكليس محيياً :
— اسمى كوكليس ياسيدى .
قال داموكليس :
— سأذكر لك اسمى يا كوكليس ، فأنا داموكليس ، وأنا واثق بأنه سيسرك أن تعرف اسم من ساق إليك حظك . .
— ولكن . . .
قال كوكليس :
— نعم ! — وستعلم ألم من ساق إليك حظك ، فما ينبغى أن تجهل أن ربحك مستمد من بؤسى .
قال داموكليس :
— ولكن . . .
قال كوكليس :
— أرجو ألا تكثر ، فان بين ربحك وألمى صلة لا أدرى ما هى ، ولكن هناك صلة .
قال داموكليس :
— ولكن يا سيدى .
قال كوكليس .
— لا تدعنى سيدك .
— ولكن عزيزى كوكليس .
بل ادعنى كوكل — فى غير تكلف .
قال داموكليس :
— ولكن مرة أخرى أيها الرجل الطيب كوكل . . .
قال كوكليس :
— كلا يا سيدى — كلا يا داموكل — فقد تستطيع أن تقول كل شئ ، فأثر اللطمة قائم على خدى . . . أستطيع أن أظهرك عليه
وجعل الحديث يتصل بالاشخاص ويمعن فى السوء . وهنا استبانت لباقة الخادم .

٤

فقد صب فى حركة رشيقة — طبقاً من أطباق الطعام على بروميتيه ، فحول إليه فجاءة عناية صاحبيه . لم يستطع بروميتيه أن يحبس صيحة ، وقد ظهر صوته بالقياس إلى صوت الآخرين عميقاً أجش ، حتى لا حظت الجماعة أنه آثر الصمت إلى الآن .
فقال داموكليس وكوكليس فى غيظ مؤتلف :
— إنك لا تقول شيئا !

بروميتيه يتكلم

قال بروميتيه :

— يا سيدى لا صلة بين ما يمكن أن أقوله وبين ما نحن فيه . . . حتى إنى لا أدرى كيف . . . بل كلما فكرت . . . كلا ! فى الحق أنى لا أدرى كيف أقول . لكل منكما قصته ، أما أنا فلا قصة لى . فاعذرانى . ثقا بأنى أسمع فى متعة خالصة لكل منكما وهو يقص قصته التى أود لو . . . أن لى . . . ولكنى لا أستطيع حتى أن أعبر عن ذات نفسى فى يسر . كلا ! فى الحق أنه يحسن أن تعذرانى يا سيدى العزيزين ، فلم أصل إلى باريس إلا منذ قريب من ساعتين . ولم يعرض لى فيها شئ — إلا لقاؤكما الذى لا يقدر والذى يشعرنى بما يمكن أن يصير إليه حديث باريسى حين يقبل عليه أصحاب الذكاء و . . .

قال كوكليس :

— ولكن قبل أن تأتى إلى باريس . . .

أضاف دامو كليس :

— قد كنت فى مكان ما .

قال بروميتيه :

— هذا حق أعترف به . . . ولكنى أعيد أن ليس بين ذلك وبين ما نحن فيه صلة ما . . .

قال كوكليس :

— ولو ! لقد جئنا إلى هذا المطعم لنتحدث . وقد أخرجنا داموكل وأنا قصتينا وأنت وحدك لم تأت بشئ . إنما تسمع وليس هذا عدلا . قد آن لك أن تقول يا سيدى . . .

وأحس الخادم فى لباقته كلها أن قد آن الوقت لتعريفه ، فأزلق الاسم كأنما يتم الجملة قائلا فى يسر :

— بروميتيه

قال داموكليس :

— بروميتيه ! معذرة يا سيدى . يخيل إلى أن هذا الاسم قد . . .

قال بروميتيه مقاطعا :

— أوه ! ليس لهذا خطر ما .

قال الآخران فى حنق :

— ولكن إذا لم يكن لشئ خطر فلم جئت إلى هذا المطعم أيها السيد العزيز . . . سيدى . . . ؟

قال بروميتيه فى رفق :

— بروميتيه .

قال كلوكليس :

— أيها السيد العزيز بروميتيه ، ألم ألفتكما آنفا إلى أن هذا المطعم يدعو إلى القول ؟ على أنك لن تقنعنى بأن اسمك هذا الغريب هو وحده الذى يميزك . إذا لم تكن قد

عملت شيئا فستعمل شيئا ، فماذا يسعك أن تعمل . بين لنا الخصلة التى تميزك ، بأى شئ تمتاز من سائر الناس ؟ لماذا سميت بروميتيه ؟

وفى هذا الموج من الأسئلة أغرق بروميتيه فنكس رأسه ، واضطر إلى أن يجيب فى صوت أشد عمقا ، وفى شئ من الاختلاط :

— ما يميزنى يا سادتى ؟ — ما يميزنى أنا — إنه نسر .

— إنه ماذا ؟

— نسر — أو لعله صقر . . . هذا موضوع تردد .

— نسر ! هذا غريب ! — نسر . . . أين هو ؟

قال بروميتيه :

— أتحرصان على أن ترياه ؟

قالا :

— نعم ! إن لم يكن فى ذلك تطفل .

هنالك نسى بروميتيه مكانه ، كل نسيان ، ونهض فجاءة ودفع صيحة عظيمة ، صيحة دعاء لنسره العظيم ، فوقع هذا الحادث المذهل :

قصة النسر

طائر يظهر ضخما من بعيد ، ولكنه من قريب ليس شديد الضخامة ، يغمر بالظلام سماء الشارع لحظة — ثم يهوى كالعاصفة على القهوة ، فيحطم الواجهة ، ويقع وقد فقأ عين كوكليس بخفقة من جناحه ، وفى زقزقة متصلة فيها حنان ولكن فيها قوة ، يسقط على الجنب الأيمن لبروميتيه ، الذى يسرع إلى صدارته فيفرجها ويقدم إلى النسر قطعة من كبده .

٥

اشتدت الضوضاء فى القهوة .

واختلطت الأصوات فى غير ائتلاف ، ثم تفرقت حين انضمت إليها أصوات أخرى .

وكان كوكليس يقول :

— خذ حذرك !

ولكن إنكاره ضاع فى وسط الضوضاء الضخمة التى كانت تقول :

— هذا نسر؟ هيهات !! انظروا إليه، هذا الطائر الناحل ! هذا ... نسر! هيهات!! إنه لا يزيد على أن يكون ضميرا .

والواقع أن النسر العظيم كان بائسا ، نحيفا خفاق الجناحين رثا . وكان إقباله فى شره على قوته القاسى يدل على أن المسكين لم يطعم شيئا منذ ثلاثة أيام .

وأسرع آخرون مع ذلك ، فجعلوا يعرضون فى همس لبروميتيه قائلين : ولكن

أيها السيد لا تظن أن هذا النسر يميزك بشئ . نسر ، أأقول لك الحق نسر ، كل منا له نسره .

وكان أحدهم يقول :

— ولكن . . .

فيضيف الآخر :

— ولكننا لا نحمل نسرنا فى باريس . فهو لا يروق فى باريس . إن النسر يضايق . أنظر إلى ما فعل ! إن سرك أن تطعمه من كبدك فذلك إليك . ولكنى أؤكد لك أن هذا منظر مؤلم لمن يراه . فاذا عمدت إلى هذا الأمر فاستخفِ به .

وكان بروميتيه يغمغم فى اختلاط :

— معذرة يا سادتى — إن أسفى لعظيم . ماذا أصنع !

— عليك أن تخلص منه قبل أن تدخل يا سيدى .

وكان بعضهم يقول :

— يجب خنقه .

وبعضهم الآخر يقول :

— يجب بيعه ؛ فلم توجد مكاتب الصحف إلا لهذا يا سيدى .

وفى هذا الضجيج المختلط المتزايد لم يلاحظ أحد أن داموكليس يطلب الحساب إلى الخادم فجاءة . فقدم إليه الخادم حسابه على هذا النحو :

غذاء كامل لثلاثة أشخاص (مع الحديث) . . . . ٣٠ فرانكا
زجاج الواجهة . . . . . ٤٥ فرانكا
عين من الزجاج لكوكليس . . . . . ٣,٥٠ فرانكا

. . . ثم قال داموكليس للخادم وهو يزلق ورقته إليه . . . : واحتفظ بالباقى . ثم انصرف سعيداً .

وآخر هذا الفصل قليل الغناء . فقد أخذ المطعم يخلو قليلا قليلا . وعبثاً حاول بروميتيه وكوكليس أن يؤديا نصيبهما من الحساب ، فقد أدى داموكليس كل شئ . وودع بروميتيه الخادم وكوكليس ، ومضى مستأنيا إلى القوقاز وهو يفكر : أيبيع النسر ؟ — أيخنقه ؟ . . . وما يمنع من استئناسه ؟ . . .

سجن بروميتيه

١

وما هى إلا أيام حتى يرى بروميتيه نفسه سجيناً بفضل تلطف الخادم الذى وشى به إلى السلطان وزعم أنه يصنع الثقاب بغير ترخيص .

وكان السجن معتزلا عن العالم لا ينظر منه إلا إلى السماء . وكان خارجه يشبه البرج . وكان من داخله يسلط السأم على بروميتيه .

وأقبل الخادم ذات يوم يزوره .
فقال له بروميتيه باسماً :
— ما أسعدنى بلقائك ! لقد كان الملل يضنينى . تحدث أنت الذى يقدم من خارج . إن جدران هذا السجن تعزلنى عن العالم ، ولست أعرف من أمر الناس شيئاً . ماذا يصنعون ؟ — وأنت أولا ماذا تصنع ؟
قام الخادم :
— لا أكاد أصنع شيئاً منذ كانت قصتك المثيرة . لم يكد أحد يلم بنا . وقد أنفقنا وقتا طويلا فى إصلاح الواجهة
قال بروميتيه :
— إنى آسف لذلك . ولكن داموكليس ما خطبه ؟ أرأيت داموكليس ؟ لقد انصرف مسرعاً من المطعم ذلك اليوم فلم أودعه . وأنا لذلك محزون . فقد كان يظهر رجلا عذباً شديد الحياء قوى الضمير . كان يعرض ألمه فى غير تكلف ، وكان يؤثر فى نفسى . أكان على أقل تقدير سعيداً حين ترك المائدة ؟
قال الخادم :
— لم تطل سعادته . فقد رأيته من غد وقد ازداد قلقه جدا حتى بكى وهو يحدثنى . وأخص ما يقلقه صحة كوكليس .
سأل بروميتيه :
— أهو إذن مريض ؟
قال الخادم :
— كوكليس ؟ — كلا ! بل أستطيع أن أقول إنه يرى الآن بعين واحدة خيراً مما كان يرى بعينين . وهو يظهر للناس جميعاً عينه الزجاجية ويسعده أن يرثى له . فاذا لقيته فقل له إن عينه الجديدة تزينه ، وأنه يحملها فى رشاقة وظرف ، ولكن أضف أنه قد تألم من غير شك . . .
— أيألم إذن ؟
— لقد يألم حين لا يقال له إنه يألم .
— ولكن إذا استقامت حال كوكليس ، بل إذا لم ينله ألم فما قلق داموكليس ؟
— يقلق مما كان يجب أن يؤلم كوكليس .
— أتشير على حقا بأن أقول لكوكليس إنه ألم . . .
— نعم ! قل له ذلك ، ولكن داموكليس يعتقده ، وهذا يغنيه .
— وماذا يصنع غير ذلك ؟
— لاشئ . قد استأثر به هذا الخاطر الوحيد . وهو فيما بينى وبينك رجل مشغول البال — فهو يقول لولا هذه الفرنكات الخمسمائة لما صار كوكليس إلى هذا البؤس .
— وكوكليس ؟

— يقول هذا أيضاً . . . ولكنه أصبح غنيا جدا .
— وكيف كان ذلك ؟
— لست أدرى بالضبط ، — ولكن الناس رثوا له كثيراً فى الصحف ، وجمعت له معونة صالحة .
— وماذا يصنع بها ؟
— إنه ماكر . يفكر فى أن ينشئ ملجأ بالمال الذى يجمع له .
— ملجأ !
— ملجأ صغيراً ، نعم ! لا يؤوى إلا العور . وقد عين نفسه مديراً .
صاح بروميتيه :
— هيه ! إن حديثك ليمتعنى .
قال الخادم :
— لقد كنت فى ذلك راغباً . . .
— وأنبئنى أيضاً . . . ما خطب صاحب الملايين ؟
— أما هو فثعلب ! — أتظن أن شيئا من ذلك يسوءه !! إنه مثلى : يلاحظ الناس . . . إن سرك ذلك قدمتك إليه — حين تخرج من هذا السجن . . .
وأخيرا قال بروميتيه :
— وعلى ذكر السجن لماذا أنا هنا ؟ وبم أتهم ؟ أتعرف هذا أيها الخادم الذى يعرف كثيراً من الأشياء ؟
قال الخادم متكلفاً :
— لا والله ! كل ما أعلمه أنك فى سجن احتياطى . وستعرف ذنبك بعد أن يحكم عليك .
قال بروميتيه :
— هذا خير . إنى أوثر على كل حال أن أعلم .
قال الخادم :
— وداعاً ! لقد تأخرت . من عجب أن الوقت يمضى مسرعاً فى صحبتك . . . ولكن أنبئنى عن نسرك ما خطبه ؟
قال بروميتيه :
— عجباً ! لقد أنسيته .
ولم يكد الخادم ينصرف حتى أخذ بروميتيه يفكر فى نسره .

« يجب أن ينمو وأن أغف »

و إذ كان بروميتيه شديد السأم فقد دعا نسره حين أقبل المساء . — وجاء النسر . قال بروميتيه :
— لقد طال انتظارى لك .
أجاب النسر :
— فهلا عجلت ذعائى !

ونظر بروميثيه لأول مرة إلى نسره ، وقد قام فى غير عناية على حديد السجن الملتوى ، وكان ذهب الأصيل يبين عن شحوبه الشديد . كان داكناً دميماً متداخلا كئيباً مسلسلاً بائساً . وكان يظهر أضعف من أن يطيق الطيران . فلما رأى ذلك بروميثيه بكى إشفاقاً على نسره قائلا له :

— أيها الطائر الوفى كأنك تألم . أنبئنى ما خطبك ؟

قال النسر :

— إنى جائع .

قال بروميثيه وقد كشف عن كبده :

— كل .

فأكل الطائر . قال بروميثيه :

— إنك تؤذينى .

ولكن النسر لم يقل شيئاً آخر ذلك اليوم .

٢

فلما كان الغد حن بروميثيه إلى نسره منذ الفجر . فدعاه من أعماق حمرة الصبح المشرق ، وأقبل النسر مع الشمس ، وقد نبتت له ريشات ثلاث . فانتحب بروميثيه حناناً ، وقال وهو يمسح الريشات النابتة :

— شد ما تأخرت !

قال الطائر :

— ذلك أنى لا أقدر على الطيران السريع ، ولا أرتفع إلا فويق الأرض . . .

— لماذا ؟

— لأننى شديد الضعف .

— إلام تحتاج لتطير مسرعاً ؟

— إلى كبدك .

— إليك فكل .

فلما كان الغد زاد ريش الطائر ثمانى ريشات . وما هى إلا أيام حتى جعل يسبق مطلع الصبح . أما بروميثيه فجعل ينحف . وكان بروميثيه يقول له :

— أنبئنى عن خارج السجن . ماذا يصنع الآخرون ؟

فكان النسر يجيب :

— أما الآن فأنا أحلق ، ولا أعرف غير السماء وغيرك .

وقد أخذ جناحاه ينموان شيئاً فشيئاً .

— أيها الطائر الجميل ماذا تقص هذا الصباح ؟

— لقد روضت جوعى فى الفضاء .

— أيها النسر ! ألا تكون فى يوم من الأيام أقل قسوة على ؟

— لا ! ولكنى أستطيع أن أزداد جمالا .
وكان بروميتيه مفتوناً بما سيستقبل نسره من الجمال ، فكان يزيد فى طعامه من يوم إلى يوم .

وذات مساء أقام النسر ولم يرم .
ثم لم يبرح السجن من غد .
وكان يشغل السجين بنهسه ، وكان السجين يشغله بمسه الرفيق ، يزيده الحب نحولا كل يوم ، وكان ينفق النهار ماسحا ريشه مسحا رفيقا ، وكان ينفق الليل مغفياً تحت جناحه ، مقدما إليه من الطعام ما يشاء . — والنسر لا يفارقه ليلا ولا نهارا .
— أيها النسر الحلو ! من كان يظن ؟
— يظن . ماذا ؟
— أن ساعات حبنا ستكون عذابا .
— آه بروميتيه . . .
— قل لى أى نسرى العزيز أتعلم فيم أنا سجين ؟
— ما يعنيك من ذلك ؟ ألست معك ؟
— أجل ! ماذا يعنينى ؟ أراض أنت عنى على الأقل يانسرى الجميل .
— أجل ! إن رأيتنى رائع الجمال .

٣

وجاء الربيع ، والتفت حول أعواد البرج الحديدية أغصان مزهرة عطرة من اللبلاب .
قال النسر :
— سنبرح الأرض ذات يوم .
صاح بروميتيه :
— أحق هذا ؟
قال النسر :
— لقد أصبحت قويا أيداً ،وأصبحت أنت نحيلا ضئيلا ، فأستطيع أن أحملك .
— أيها النسر أيها النسر . . . احملنى .
واحتمل النسر بروميتيه .

فصل يتيح انتظار ما بعده

فى ذلك المساء التقى كوكل وداموكل وتحدثا . ولكن شيئاً من الفتور كان بينهما من غير شك . فكان كوكليس يقول :
— ماذا تريد ؟ إن الرأى بيننا مختلف .

وكان داموكل يجيب :

— أواثق أنت ؟ ليس أحب إلى من أن نتفق .

— تقول ذلك ولكنك لا تؤمن إلا لنفسك .

— أما أنت فلا تعنى حتى بالاستماع لى . قل إذن إن كنت تعلم .

— أتزعم أنك تعلم خيراً منى ؟

— وا أسفاه يا كوكليس! إنك تغضب — ولكن رحماك! قل لى ماذا يجب أن أصنع ؟

— لا تصنع لى شيئا أكثر مما صنعت . لقد اتخذت لى عينا من زجاج .

— من زجاج لأنى لم أجد خيراً من ذلك يا عزيزى كوكليس .

— نعم ! بعد أن جعلتنى أعور .

— ولكن لست أنا الذى جنى عليك يا عزيزى كوكليس .

— هذا أقل ما كان يجب أن تفعل . على أنك كنت تستطيع أن تتكلف الثمن — فقد كنت غنيا بفضل لطمتى .

— أى كوكليس لنس الماضى ! . . .

— بالطبع يروقك أن تنساه .

— ليس هذا ما أعنى . . .

— ولكن ماذا تريد أن تقول إذن ؟ هلم تكلم !

— إنك لا تسمع لى .

— لأنى أعلم ما ستقول .

وكاد الحوار الذى لا جديد فيه يتخذ مجرى سيئاً ، وإذا هما يصطدمان فجاءة بلوحة إعلان متنقلة وقد كتب عليها :

هذا المساء فى الساعة الثامنة

فى قاعة الأهلة

سيتحدث عن نسره

بروميتيه محرراً

وفى الساعة الثامنة والنصف

يقدم النسر إلى النظارة ويأتى ببعض الحركات

وفى الساعة التاسعة

يجمع الخادم التبرعات لملجأ كوكليس

قال كوكليس :
— يجب أن نرى هذا .
قال داموكليس :
— سأصحبك .

٤

ودخلت جماعة النظارة قاعة الأهلة فى تمام الساعة الثامنة .
وجلس كوكليس فى وسط القاعة عن يسار ، وجلس داموكليس فى وسطها عن يمين ، وجلس سائر الناس بين ذلك .
واستقبل بروميتيه برعد من التصفيق . فصعد درجات المنصة ، ووضع نسره إلى جانبه ، وثاب إلى نفسه . وجرى فى القاعة صمت مرتعش . . .

الاستدلال بالدور

وبدأ بروميتيه حديثه قائلا :
— سادتى ! لاأزعم لنفسى مع الأسف القدرة على إمتاعكم بما سأقول ، ولهذا استصحبت هذا النسر ، ليلعب بعض اللعب حين أفرغ من كل جزء ممل لهذا الحديث . وأنا أحمل كذلك بعض الصور الماجنة وبعض الصواريخ الطائرة . وسأسلى النظارة بها فى المواطن الخطيرة من خطبتى . فلى أن أنتظر منكم أيها السادة بعض الالتفات .
وسيشرفنى أيها السادة أن أشهدكم طعام النسر فى كل موضع جديد من خطبتى — لأن خطبتى أيها السادة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، (ولم أرد أن أعدل عن هذا التقسيم الذى يلائم عقلى التقليدى) . — وإذا ما كان ما قدمت يصلح فاتحة لهذه الخطبة ، فسأعلن إليكم الآن مقدماً وفى غير تكلف القسمين الأولين من أقسامها :
القسم الأول : يجب أن يكون لكل إنسان نسر .
القسم الثانى : على أن لكل واحد منا نسراً .
وإذ كنت أخشى أيها السادة أن تظنوا بى التعصب ، وإذ كنت أخشى كذلك أن أقيد حريتى فى التفكير ، فقد تعمدت ألا أعد من خطبتى إلا هذين القسمين . أما القسم الثالث فسينتج بالطبع عن القسمين الآخرين ، وسأدع الحماسة تسلك سبيلها إلى أبعد حد . — وسيختم النسر هذا الحفل بجمع التبرعات .
فصاح كوكليس :
— مرحى ! مرحى !
شرب بروميتيه جرعة من ماء . ودار النسر ثلاث مرات حول بروميتيه ثم حيا ، ونظر بروميتيه فى القاعة ، وابتسم لداموكليس ثم لكوكليس ، ولم ير آية من آيات السأم فأجل صواريخه ، واستأنف قائلا :

٥

مهما يكن حظى من البراعة البيانية أيها السادة فلن أستطيع أمام بصائركم النافذة ، أن أخفى التناقض الذى لا مفر منه والذى ينتظرنى فى أول حديثى .

فمهما نصنع أيها السادة فلا سبيل لنا إلى الافلات من التناقض . ماعسى أن يكون التناقض ؟ أجرؤ أيها السادة على أن أقول : إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج ، إذ حيث ينعدم الدليل يتأكد المزاج .

فاذا أعلنت : يجب أن يكون لكل إنسان نسر ، كان لكم أن تتصايحوا : لماذا ؟ — و إذن فكيف تريدون أن أجيب بغير هذا الجواب الذى يؤكد شخصيتى ومزاجى وهو : لا أحب الناس ، و إنما احب مايلتهمهم .

المزاج أيها السادة هو مايجب أن يثبت نفسه . ستقولون : هذا تناقض جديد . ولكنى قلت آنفاً إن كل تناقض إنما هو تأكيد للمزاج . ومن حيث إنى أرى وجوب تأكيد المزاج فانى أعيد : لا أحب الناس و إنما أحب ما يلتهمهم . — وعلى ذلك فماذا يلتهم الانسان ؟ يلتهمه نسره و إذن أيها السادة فيجب أن يكون لكل إنسان نسر . وأظن أنى قد أثبت ذلك إثباتاً كافياً .

. . . وا أسفاه ! إنى أرى أيها السادة أنى قد أملتكم . فبعضكم يتثاءب . وقد أستطيع فى الحق أن أسوق هنا بعض النكات ، ولكنكم قد تحدونها متكلفة ، فان عقلى مطبوع على الجد لا يحيد عنه . لذلك أوثر أن أدير عليكم بعض الصور الماجنة . ذلك أحرى أن يهدئ الذين يملهم حديثى ، فأمضى إلى الغاية .

وشرب بروميثيه جرعة من ماء ، ودار النسر ثلاث مرات حول بروميثيه ، ثم حيا . واستأنف بروميثيه :

بقية حديث بروميثيه

سادتى : لم أعرف دائماً نسرى . وهذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج بقياس له اسم خاص فى المنطق أنسيته ، لأنى حديث عهد بالمنطق لم أدرسه إلا منذ ثمانية أيام — أقول إن هذا هو الذى يحملنى على أن أستنتج . و إن لم يكن هنا إلا نسر واحد هو نسرى ، أن لكل واحد منكم أيها السادة نسراً .

لقد كتمت قصتى إلى الآن . على أنى إلى الآن لم أكن أفهمها و إذا أخذت نفسى بأن أقصها عليكم فى هذه الساعة ، فلأنها تظهر لى فى هذا الوقت بفضل نسرى رائعة حقا .

٦

سادتى ، قلت لكم إنى لم أكن أعرف نسرى دائماً . وكنت قبل أن أعرفه خلياً جميلا ، سعيداً عارياً دون أن أعلم ذلك . يا لها أياماً سعيدة . على جوانب القوقاز المشرقة كانت آسيا الهلوك تعانقى سعيدة عارية أيضاً ، وكنا معاً نتدحرج فى الأودية ، ونجد غناء الهواء ، وضحك الماء ، وأرج أيسر الزهر شأناً . وكثيراً ما كنا نضطجع فى ظل الأغصان العراض ، بين أزهار يتنازى عليها ذبابها متناغياً . وكانت آسيا تقترن بى يملؤها الضحك ، ثم فى شئ من العذوبة يمتزج طنين الذباب ، وهفيف الورق ، وخرير الجداول الكثيرة ، فيدعونا إلى أعذب النوم وأحلاه . وكان كل شئ من حولنا يسمح ويحمى عزلتنا التى لا يطيقها الانسان . — وذات يوم قالت لى آسيا فجاءة : ينبغى أن تعنى بالناس .

وكان يجب على أولا أن ألتمسهم .

كنت أريد أن أعنى بهم ، ولكن عنايتى بهم كانت إشفاقا عليهم .

كانوا يغمرهم شئ من ظلمة . فاخترعت لهم شيئا من نار . ومنذ ذلك الوقت بدأ نسرى . من ذلك الوقت جعلت أشعر أنى عريان .

وهنا انطلق التصفيق من بعض جوانب القاعة . وفجأة أمعن بروميثيه فى النحيب . وخفق النسر بجناحه وتغنى . وفى حركة بشعة فرج بروميثيه صداره وقدم كبده الجريحة إلى الطائر . فتضاعف التصفيق . ثم دار النسر ثلاث مرات حول بروميثيه . وشرب هذا جرعة من ماء ، وثاب إلى نفسه ، واستأنف حديثه قائلا :

٧

سادتى كان التواضع يسيطر على . معذرة إليكم فانى إنما أتحدث إلى الجمهور لأول مرة . أما الآن فالصراحة هى المسيطرة : سادتى لقد عنيت بالناس أكثر جدا مما كنت أقول . سادتى لقد أهديت إلى الناس خيرا كثيرا . سادتى لقد أحببت الناس حبا عنيفا هائما سيئ العاقبة . — ولقد أحسنت إليهم حتى كأننى خلقتهم خلقا ؛ فأى شئ كانوا قبلى ؟ — كانوا موجودين ، ولكنهم لم يكونوا يشعرون بوجودهم . — صنعت لهم يا سادتى بكل ما ملكت من حب ، هذا الضمير كأنه النار التى تضئ لهم . — وأول ما عرفوا من الشعور إنما كان الشعور بجمالهم . هذا الذى أتاح لهم بقاء النوع . وكذلك استطاع الانسان أن يبقى فى ذريته . وكذلك تكرر جمال الانسان الأول مستويا لا يحفل به أحد ولا يتحدث عنه أحد . وكان ذلك خليقا أن يتصل زمنا طويلا . — ولكنى كنت بهم معنيا ، وكنت أحمل على غير علم منى البيضة التى خرج منها نسرى . فأردت أكثر من ذلك بل خيرا من ذلك . خيل إلى أن بقاء النوع وأن اتصاله المتقطع إنما يصوران فيهم تنظر شئ — على حين كان نسرى وحده هو الذى ينتظر . أما أنا فلم أكن أعلم ؛ إنما كنت أظن أن الانسان هو الذى كان ينتظر ؛ كنت أضع هذا الانتظار فى الانسان .

على أنى وقد وضعت الانسان على صورتى . أفهم الآن أن فى كل فرد من أفراده شيئا ينتظر وهو لم يتفتح بعد . فى كل فرد من أفراده كانت بيضة النسر . . . ثم لا أدرى ؛ لا أستطيع أن أفسر ذلك ، وإنما أعرف أنى لم أقنع بمنحهم الشعور بوجودهم فمنحتهم الأسباب التى تجعل وجودهم نافعا مغنيا . منحتهم النار واللهب وكل الفنون التى يكون اللهب لها مادة . أشعت الحرارة فى نفوسهم ، فتفتح فيهم مايلتهمهم من الايمان باستعداد الانسان للرقى . وكنت أجد متعة غريبة حين أرى الانسان يفنى صحته ليبقى نوعه — لا مؤمنا بالخير بل مريضا طامحا إلى خير من الخير . وكان إيمانهم بالرقى ، أيها السادة ، هو نسرهم . فنسرنا ، أيها السادة ، هو علة وجودنا .

وقد جعلت سعادة الانسان تنقص وتنقص ولكنى لم أحفل بذلك : فقد ولد النسر . لم أكن أحب الناس ، وإنما كنت أحب ما يبقى من آثارهم . وقد فرغت من انسانيتى التى لا تاريخ لها . . . إنما تاريخ الانسان أيها السادة هو تاريخ النسور .

٨

وهنا اندفع شئ من تصفيق ، فاعتذر بروميتيه مضطربا :

— أيها السادة لقد كنت أكذب . معذرة إليكم ؛ فلم يكن هذا سريعا إلى هذا الحد . كلا لم أحبب النسور دائما . لقد آثرت عليها الانسان وقتا طويلا ؛ وكنت حريصا على سعادته المنقوصة لأنى نقصتها فكنت أرانى مسئولا عنها . وكنت كلما فكرت فيها حين يقبل المساء أقبل نسرى على محزونا كأنه الندم وأخذ يأكل .

كان فى ذلك الوقت نحيفا شاحبا مهتما كئيبا . — كان دميما كأنه الصقر . — فانظروا إليه الآن أيها السادة وافهموا لماذا أتكلم ؛ لماذا أجمعكم هنا ! لماذا أضرع إليكم فى أن تسمعوا لى : ذلك أنى استكشفت هذا ، وهو أن النسر يمكن أن يصير جميلا جدا — ولكل واحد منكم نسره كما أكدت لكم ذلك آنفا . نسر ؟ — وا أسفاه ! لعله أن يكون صقراً ! لا ، لا ! لا صقر أيها السادة ! — يجب أيها السادة أن يكون لكل إنسان نسر . . .

والآن أصل إلى المسألة الخطيرة : — لماذا النسر ! آه ! لماذا ! — ليجب النسر على هذا السؤال . هذا نسرى أيها السادة أحمله إليكم ... أيها النسر أجيب أنت الآن ؟...

ثم التفت بروميتيه قلقا إلى نسره . وكان النسر ساكنا وظل ساكتا . . . فاستأنف بروميتيه فى صوت أسف :

— أيها السادة ! لقد سألت نسرى فى غير طائل . . . أيها النسر ! تكلم الآن : إنهم يستمعون لك . من أرسلك ؟ — لماذا اخترتنى ؟ من أين أقبلت ؟ إلى أين تذهب ؟ تكلم ما طبيعتك ؟ . . . (وظل النسر صامتا .) — كلا ! لا شئ ! لا كلمة ! لا صيحة ! وقد ظننت أنه سيكلمكم أنتم ؛ ولهذا استصحبته . . . أأتكلم إذن وحدى هنا . كل شئ صامت ! كل شئ صامت — ما معنى هذا ! . . . لقد سألته فى غير طائل .

ثم التفت إلى النظارة قائلا :

— لقد أملت أيها السادة أن تحبوا نسرى ، وأن حبكم سيجعل لجماله علة . — من أجل ذلك منحته نفسى وغذوته بدم قلبى . ولكنى أرى أنى أعجب به وحدى ... أليس يكفيكم أن يكون جميلا ؟ — أم تنكرون على جماله ؟ — أنظروا إليه على أقل تقدير ... إنى لم أعش لشبئ غيره . — وأنا الآن أحمله إليكم . ها هو ذا ! — ولقد كنت أعيش من أجله — أما هو فلم يعيش ؟ — أيها النسر الذى غذوته بدمى بنفسى والذى منحته كل حبى . . . (وهنا قطع النحيب على بروميتيه حديثه) — أيجب إذن أن أترك الدنيا دون أن أعلم لماذا أحببتك ، ودون أن أعلم ماذا تعمل وإلى أى حال تصير بعدى على هذه الأرض . . . على الأرض سألت . . . سألت فى غير طائل

وكان الكلام يحتبس فى حلقه ؛ وكانت الدموع تمنع صوته من أن يبلغ السامعين .

ثم استأنف قائلا وقد استرد شيئا من هدوء :

— معذرة أيها السادة ؛ — معذرة من أن تحدثت إليكم بأشياء عظيمة الخطر ؛ ولو قد علمت شيئا أعظم منها خطرا لأفضيت إليكم به .

ثم مسح بروميتيه عرقه المتصبب وشرب جرعة من الماء وأضاف :

آخر حديث بروميتيه

لم أعدد من حديثى إلا هذا القدر . . .

وهنا اشتدت الحركة فى القاعة ؛ وهم الذين أدركهم السأم أن ينصرفوا .

فصاح بروميتيه :

— سادتى إنى أتوسل إليكم فى أن تقيموا . لن أطيل . ولكن المهم لم يقل بعد إن لم أكن قد أقنعتكم . أيها السادة ! — أرجو . . . هلم ! شيئا من السرعة . . . بعض الصواريخ . . . وأنا محتفظ بأقومها للحظة الأخيرة . . .

— أيها السادة رحماكم اجلسوا ؛ انظروا . أترون أنى أقتصد . إنى أرسل منها ستة فى وقت واحد . ومع ذلك فغلق الأبواب يا فتى .

وأثرت الصواريخ تأثيرا حسنا ، فجلس أكثر الواقفين .

— والآن أين بلغت من حديثى ؟ لقد اعتمدت على الاندفاع الذى أصبته فقد قطعته حركتكم . . .

فصاح صائح :

— ليكن ، هذا خير .

قال بروميتيه :

— آه ! لقد ذكرت . . . كنت أريد أن أقول لكم . . .

(فتصايح الناس من كل جانب : — حسبك ! حسبك ! !)

. . . إنه يجب عليكم أن تحبوا نسركم .

فارتفعت إليه فى سخرية من هنا وهناك أسئلة : « لماذا ؟ »

— إنى أسمع أيها السادة أسئلتكم « لماذا » : فأجيب : لأنه حينئذ سيصير جميلا .
— وإذا صرنا نحن إلى الدمامة .
— أيها السادة إن ما أحس إليكم هنا ليس كلاما تبتغى به المنفعة . . .
— هذا بين .
— إنما هو كلام قوامه الاخلاص . أيها السادة يجب أن يخلص الانسان لنسره . . .
(فيضطرب الناس وينهض كثيرون) . أيها السادة لا تقفوا ! فسأمس بعض الشخصيات . . . لست فى حاجة إلى أن أذكر هنا قصة كوكليس وداموكليس . فكلكم يعرفها . وهأنذا أواجههما بالحق . إنما سر حياتهما فى إخلاص كل منهما فى دينه . فى إخلاصك للطمتك يا كوكليس ، وفى إخلاصك لورقتك يا داموكليس . أى كوكليس كان يجب عليك أن تتعمق جرحك وعينك الفارغة أى كوكليس . أما أنت يا داموكليس فقد كان يجب أن تستبقى المئات الخمس من الفرنكات ، وأن تظل مدينا بها فى غير خجل ، وأن تظل مدينا بأكثر منها ، وأن تظل مدينا فى فرح . هذا هو نسركما أنتما . وهناك نسور أخرى ؛ هناك نسور أعظم منهما مجدا . ولكنى أقول لكم هذا : إنما النسر يلتهمه على كل حال سواء أكان نضيلة أم رذيلة ، واجبا أم شهوة . إجتهد فى ألا تكون رجلا عاديا ، وإذن فلن تفلت من النسر . ولكن . . .
(وهنا كاد صوت بروميتيه يضيع فى صخب الجمهور) — ولكنكم إذا لم تطعموا نسركم محبين له فسيظل شاحبا بائسا مستخفيا من الناس جميعا ولكنه مع ذلك متربص ؛ وهو الذى يسمى حينئذ بالضمير ، وهو غير خليق بما يثير فى النفوس من آلام ؛ لا حظ له من جمال . — أيها السادة يجب أن يحب الانسان نسره ، وأن يحبه ليصير جميلا . فقد يجب أن تحبوه لأنه سيصير جميلا . . . أما الآن فقد فرغت . وسيأخذ نسرى فى جمع التبرعات . أيها السادة يجب أن تحبوا نسرى : — وأنا مع ذلك أرسل بعض الصواريخ .

. . . . . .
. . . . . .

وبفضل هذه التسلية الصاروخية تفرقت الجماعة فى غير مشقة ؛ ولكن داموكليس أصابه البرد حين خرج من القاعة .

مرض داموكليس

قال الخادم لبروميتيه وقد لقيه بعد ذلك بأيام
— هل تعلم أن حاله تسوء ؟
— من ؟
— داموكليس . أجل تسوء جدا : — أدركته العلة منصرفه من محاضرتك . . .
— أى علة ؟

— يتردد فيها الأطباء ؛ — إنها علة شديدة الندرة . . . يتحدثون عن ضيق فى العمود . . .

— فى العمود ؟

— فى العمود . — وإذا لم تدركه العافية باحدى المعجزات فلن يزداد المرض إلا خطراً إنه ضعيف جدا لاشك فى ذلك ؛ وإنك لا تحسن بعيادته .

— أتعوده كثيراً ؟

— أنا ؟ كل يوم . إنه قلق على كوكليس ، وانا أحمل إليه أنباءه .

— ولما لا يذهب إليه بنفسه ؟

— كوكليس ؟ — إنه مشغول جدا . لقد أثر فيه حديثك تأثيراً هائلا . أتجهل ذلك ؟ فهو لا يتحدث إلا عن الاخلاص . وهو ينفق وقته مطوفا فى كل مكان متلمسا لطمة جديدة تؤدى شيئا من المال لرجل من أمثال داموكليس . وهو يغرى فى غير نفع خده الآخر .

— نبئ بذلك صاحب الملايين .

— إنى أنبئه بذلك فى كل يوم . بل أنا من أجل ذلك أعود داموكل فى كل يوم .

— ولم لا يعوده هو ؟

— هذا ماأقوله له ولكنه يرفض . لايريد أن يعرف . ومع ذلك فقد يبرأ داموكليس إذا عرف من أحسن إليه : أقول له ذلك ولكنه يمعن فى إبائه ويحرص على أن يظل مجهولا — فقد فهمت الآن أنه لا يعنى بداموكليس وإنما يعنى بعلته .

— ألم تقل لى إنك ستقدمنى إليه . . . ؟

— منذ الآن إن شئت .

ومضيا إليه من ساعتهما

٢

وإذ لم نعرف زوس صديق الخادم فقد أزمعنا ألا نتحدث عنه إلا قليلا .
فلنرو عنه فى يسر هذه الكلمات .

حديث صاحب الملايين

الخادم : — أليس حقا أنك عظيم الثراء ؟

صاحب الملايين ملتفتا قليلا نحو بروميتيه : — أنا غنى ، أغنى جدا مما يمكن أن يظن . أنت لى ، وهو لى ، وكل شئ لى . — إنكم تظنون أنى صاحب مصرف ، ولكنى شئ آخر . وإن نأثيرى فى باريس خفى ، ولكن هذا لا يقلل من قيمتى . هو خفى لأنى

لا أتتبعه . نعم ! إنى أحب قبل كل شئ الابتكار . أنا أنشئ . ثم إذا تقدم ما أنشأته أعرضت عنه ، ثم لم أمسسه .

الخادم : — أليس حقا أن أعمالك عابثه ؟

صاحب الملايين : — أنا وحدى ، إنما صاحب الثراء الذى لا حد له هو الذى يستطيع أن يعمل فى غير غاية . أما الانسان فلا . ومن هنا أحببت اللعب ؛ لم أحب الكسب ، افهما عنى — إنما أحب اللعب . وماذا عسى أن أكسب وقد ملكت كل شئ ؟ حتى الزمن . . . أتعرفان سنى ؟

بروميتيه والخادم : — يظهر أن سيدنا مازال شابا .

صاحب الملايين : — وإذن فلا تقاطعنى يا بروميتيه . نعم أنا كلف باللعب . واللعب الذى أوثره هو أن أقرض الناس — أقرضهم لاعبا . أقرضهم مضيعاً للمال . أقرضهم وكأنما أعطيهم . — يعجبنى ألا يعلم الناس أنى أقرض . أنا ألعب ولكنى أخفى لعبى . أنا أجرب . أنا ألعب كما يلقى الهولندى بذوره ، كما يزرع بصيلة خفية . وما أقرضه للناس وما أزرعه فى الناس يعجبنى أن ينمو ، يعجبنى أن أراه ينمو . وبغير ذلك يصبح الانسان فارغاً ! — دعانى أقصص عليكما أحدث تجارى ، وستعيناني على ملاحظتها . اسمعا لى أولا وستفهمان بعد ذلك . ستفهمان .

لقد هببت إلى الشارع ملتمساً الوسيلة إلى أن أوذى أحد الناس بالخير الذى سأسوقه إلى غيره ، لأمتع هذا الأخير بالألم الذى سأمتحن به ذلك الأول . ويكفينى لذلك لطمة وورقة قيمتها خمسمائة فرنك ؛ لأحدهما اللطمة وللاخر الورقة . أواضح هذا ؟ أما ما هو أقل من هذا وضوحا ، فهى الطريقة التى يكون بها المنح .

قال بروميتيه مقاطعاً :

— أعرف ذلك

قال زوس .

— ماذا ! أتعرف ؟

— لقد لقيت داموكليس وكوكليس ؛ إنما أحدثكما عنهما بالضبط : إن داموكليس يلتمسك ويدعوك ؛ إنه قلق ؛ إنه مريض ؛ أشفق عليه وأظهر له نفسك .

— ياسيدى حسبك — لست فى حاجة إلى أن أتلقى النصح من أحد .

وهم بروميتيه أن ينصرف . ولكن يبدو له فجاءة :

— سيدى معذرة اليك واعف لى عن سؤال متطفل . أظهره لى متفضلا ! كم أود لو أراه . . .

— ماذا ؟

— نسرك .

— لا نسر لى يا سيدى .

— لا نسر لك ؟ ليس له نسر ! ! ولكن . . .

— لا نسر لى كما أنه لا نسر فى باطن يدى . النسور (وكان زوس يضحك) النسور أنا الذى أعطيها .

وكان ذهول بروميتيه عظيما .

قال الخادم لصاحب المصرف :
— أتعرف ماذا يقال ؟
— ماذا يقال ؟
— يقال إنك الاله !
قال الآخر :
— لقد سمعت ذلك .

٣

ذهب بروميتيه ليعود داموكليس . ثم عاده مرات كثيرة . ولم يكن يتحدث إليه كل مرة ؛ ولكن الخادم كان يعطيه أنباءه . وقد استصحب كوكليس ذات يوم .
فاستقبلهما الخادم . قال بروميتيه :
— كيف هو ؟
أجاب الخادم :
— سئ سيئ جداً . لم يطعم البائس شيئاً منذ ثلاثة أيام . إن مصير ورقته يعذبه ، فهو يلتمسها فى كل مكان ولا يجدها فى مكان . يظن أنه أكلها فيتخذ المسهل ويلتمسها فيما يخرج منه . فاذا ثاب إليه عقله وذكر هذه المغامرة لم يزده ذلك إلا حزنا ونغصاً . وهو واجد عليك يا كوكليس ، فهو يزعم أنك تعقد دينه حتى يختلط الأمر عليه ، وهو يهذى فى أكثر الأحيان . ونحن ثلاثة نسهر عليه الليل ، ولكنه يثب فى سريره حتى يحول بيننا وبين النوم .
قال كوكليس :
— أيمكن أن نراه ؟
— نعم ! ولكنك ستراه قد تغير . إن القلق يفنيه . لقد نحف ونحف ونحف . أتراك تعرفه ؟ — وهو أتراه يعرفك ؟
ودخلوا يسعون على أطراف أقدامهم .

الأيام الأخيرة لداموكليس

وكانت غرفة داموكليس بغيضة الرائحة لما اشتملت عليه من أدوية ، وكانت ضيقة منخفضة السقف . وكان ينتشر فيها ضوء حزين من ساهرتين . وكان داموكليس يرى فى سرير تحت كومة قذرة من الأغطية . وكان يتحدث إلى شخص ما وإن لم يكن أحد يصغى إليه ؛ وكان صوته أجش مبحوحاً . وقد نظر كل من بروميتيه وكوكليس إلى صاحبه وقد ملأهما الروع ! ولم يسمعهما داموكليس حين أقبلا ، فمضى فى حديثه كأنه كان وحيداً .

كان يقول :

— ومنذ ذلك اليوم ظهر لى فى وقت واحد أن حياتى قد أصبحت ذات معنى ، وأنى لا أستطيع أن أحيا ! هذه المئات الخمس من الفرنكات البغيضة الممقوتة ، كنت أظن أنى مدين بها للناس جميعاً ولا أجرؤ على أن أعطيها لأحد — لقد حرمتها الناس جميعاً . ولم أكن أفكر إلا فى أن أخلص منها — ولكن أين ؟ — فى صندوق التوفير ! لقد كان ذلك خليقا أن يزيد همى . كان دينى يزداد بمقدار ما ينتج من فائدة ؛ وكان ثقيلا على أن أدع هذا المال راكداً . وكذلك رأيت أن أدير هذا المقدار من المال . فكنت أحمله دائما ؛ وكنت أستبدل فى نظام كل ثمانية أيام بالورقة نقداً وبالنقد ورقة . وليس فى الصرف ربح ولا خسارة ، وإنما هو جنون دائر ليس غير . وإلى هذا كان يضاف الألم من أنى إنما تلقيت هذه المئات الخمس من الفرنكات بفضل لطمة تلقاها رجل آخر ! — وفى ذات يوم لقيتك فى المطعم كما تعلم . . .

قال الخادم :

— إنما يتحدث عنك .

— وإذا نسر بروميتيه يحطم واجهة ويفقأ عين كوكليس . . . لقد نجوت !! عابثا منتهزا للمصادفة مستفيدا من الحظ . سأزلق هذا المبلغ فى أثناء هذه الأحداث . لادين ! لقد نجوت ! — واحسرتاه يا سادتى . يالله من خطأ . . . إنما احتضر منذ ذلك اليوم . كيف أفسر لكم هذا ؟ أيمكن أن تفهموا ما أجد من لوعة هذه المئات الخمس من الفرنكات ؟ أنا مدين دائما ولكنها ليست فى يدى ! لقد هممت فى جبن أن أتخفف من دينى ولكنى لم أؤده . وإنى ليأخذنى الكابوس أثناء الليل فأهب وقد تصببت عرقا وأجثو صائحا : « رباه ! رباه ! لمن كنت مدينا ؟ — رباه ! لمن كنت مدينا ! » لست أدرى ولكنى كنت مدينا . — إن الدين يا سادتى شئ بغيض . أما أنا فقد آثرت أن أموت . — والآن فان أشد مايؤلمنى هو أنى نقلت إليك هذا الدين يا كوكليس . . . كوكليس ! إن عينك ليست لك لأن المال الذى اشتريتها به لم يكن لى . يقول الكتاب المقدس : « أى شئ عندك لم يعط لك » . . . يعطى لى من ؟ ممن ؟ ممن ؟ — إن شقائى لا يطاق .

وكان صوت البائس يتقطع ويبتل ويختنق فى الشهيق والنحيب والدموع . وكان بروميتيه وكوكليس قلقين يسمعان . قد أخذ كل منهما بيد صاحبه وهما يرتعدان . وكان دامؤكليس يقول وكأنه كان يراهما :

— إن الدين لبغيض أيها السادة . . . ولكن أشد منه هولا الندم على محاولة التخلص من الدين . . . كما لو كان الدين أقل وجوداً إذا حمله شخص آخر . . . ولكن عينك تحرقك يا كوكليس ! — أى كوكليس !! إنى واثق بأن عينك الزجاجية تحرقك . انزعها ! — إن لم تكن تحرقك فهى خليقة أن تحرقك . — إنها ليست لك هذه العين . . . وإذا لم تكن لك فهى إذن لأخيك . . . لمن هى ؟ لمن ؟؟ لمن ؟؟

وكان البائس يبكى ؛ وكان يفقد عقله وقوته ؛ وكان أحياناً يحدق فى كوكليس و بروميتيه كأنه يعرفهما ثم يصيح بهما :

— إفهما عنى إشفاقاً على ! إن الاشفاق الذى أطلبه إليكما ليس عصابة مبتلة على جبهتى

وليس قدحا من الماء البارد وليس شرابا حارا ؛ وإنما هو أن تفهما عنى . أعيانى إذن رحمة لى على أن أفهم نفسى ! — إن عندى هذا الذى لا أدرى من أين جاءنى ، والذى أنا مدين به لا أدرى لمن ! لمن !! لمن !! — ولأجل أن أخلص من هذا الدين ظننت أنى أقدر على ذلك فذهبت أمنحه لغيرى !الغيرى !! لكوكليس تصدقت عليه بعين !! ولكن هذه العين ليست لك يا كوكليس . أرددها . أرددها ، إلى من ! إلى من !! إلى من !! ولم يستطع كوكليس و بروميتيه أن يحتملا فانصرفا .

٤

قال كوكليس وهما يهبطان فى السلم :

— هذا جزاء من اكتسب الغنى من ألم غيره .

قال بروميتيه :

— ولكن أتجد على أقل تقدير شيئاً من الألم ؟

قال كوكليس :

— أجد الألم فى عينى أحيانا ، فأما اللطمة فلا أكاد أجد لها ألماً ؛ لقد خف وقعها . ولست أحب ألا أكون قد تلقيتها لانها أظهرتنى على أنى رجل خير . وهذا يعجبنى و يرضينى ، فما أنفك أفكر فى أن ألمى قد عاد على نظير لى بالرزق وأغل عليه مئات خمساً من الفرنكات .

قال بروميتيه :

— ولكن نظيرك هذا يموت من ذلك يا كوكليس .

— ألم تكن تقول له إن عليه أن يغذو نسره ؟ — ماذا تريد ؟لم نستطع قط ، داموكليس وأنا ، أن نتفق ؛ فان أراءنا متناقضة إلىأبعد حدود التناقض .

ثم انصرف بروميتيه عن كوكليس ومضى مسرعا إلى زوس صاحب المصرف . فقال له :

— أشفق على هذا الرجل وأره نفسك أو أعلمه من أنت . إن البائس يموت حسرة . وقد أفهم أن تقتله لأنك تجد فى ذلك لذة ، ولكن يجب أن يعلم على الأقل من قاتله — ليستريح إلى هذا العلم .

قال صاحب الملايين :

— لا أريد أن أفقد سلطانى .

٥

وكانت آخرة داموكليس خليقة بالاعجاب ؛ فقد نطق قبيل ساعته الأخيرة ببعض هذه الكلمات التى تبكى أشد الناس جحودا وتحمل المؤمنين بالدين على أن يقولوا إنها مليئة بالعبرة والموعظة . وكان أظهر شعوره ما تصوره هذه الكلمات : — أرجو على الأقل ألا يكون هذا المبلغ قد قضى عليه الحرمان .

فسئل : من هو ؟
قال داموكل وهو يجود بنفسه :
— هو من أعطانى شيئاً . . .
قال الخادم فى لباقة :
— كلا ! إنما هو الاله .
ومات داموكليس حين سمع هذه الكلمة الطيبة .

الجنازة

وكان بروميتيه يقول لداموكليس وهما يتركان غرفة الموت :
— إن هذا لفظيع ! إن آخرة داموكليس لتملأ نفسى جزعاً . أحق أن محاضرتى كانت مصدر مرضه ؟
قال الخادم :
— لا أستطيع أن أؤكد ذلك ، ولكنى أعلم على الأقل أنه كان شديد التأثر بما كنت تقول عن نسرك .
قال كوكليس :
— عن نسرنا .
قال بروميتيه :
— لقد كنت شديد الاقتناع . ولذلك أقنعته . . . لقد كان حديثك شديد القوة . . .
— كنت أظن أن أحداً لم يكن يصغى إلى . . . وكنت من أجل ذلك ألح . . . ولو قد علمت أنه كان يسمع لى . . .
— ماذا كنت قائلا ؟
قال بروميتيه مغمغماً :
— نفس ما قلته .
— وإذن ؟
— ولكنى لن أقول ذلك منذ الآن .
— ألم تعد مقتنعاً ؟
— لقد أسرف داموكليس فى الاقتناع . فأما الآن فان لى فى نسرى آراء أخرى .
— وعلى ذكر النسر أين هو ؟
— لا تخف يا كوكليس فانى أرقبه من كثب .
— وداعاً . سأتخذ الحداد . متى نلتقى ؟
— حين الدفن فيما أظن . سأتكلم عند القبر . يجب أن أصلح شيئاً . ثم أدعوكما بعد ذلك ، سأقدم طعام الحداد ، وفى نفس المطعم الذى رأينا فيه داموكليس لأول مرة .

٦

وفى ساعة الدفن لم يكن المشيعون كثيرين ، فلم يكن داموكليس معروفا إلا قليلا ، فلم يلتفت إلى موته أحد من الذين لم يعرفوا هذه القصة ، وقد التقى بروميتيه والخادم وكوكليس عند القبر وشهد الدفن بعض الفارغين من الذين استمعوا للمحاضرة ، وكان كل واحد ينظر إلى بروميتيه وكان معروفا أنه سيتكلم ، وكان بعضهم يسأل بعضا : « ما عسى أن يقول ؟ » لأنهم كانوا يذكرون ما قال . وكان الدهش يسبق خطبته وكان مصدر هذا الدهش أن الناس لم يكونوا يحقون بروميتيه ، كان بدينا نشيطا مبتسما مبتسما إلى حد أن سيرته كادت تعد مخالفة للمألوف ، ثم تقدم نحو القبر باسما دائما ولم يكد يبلغه حتى استدار ونطق بهذه الكلمات :

قصـــة تيتـــير

أيها السادة الذين يتفضلون بالاستماع لى إن الجملة التى أقتبسها من الكتاب المقدس وأتخذها مقدمة لما سأستأنف من حديث هى هذه :

— « دعوا الموتى يدفنوا الموتى » . فلن نشغل أنفسنا إذن بداموكليس . — لقد رأيتكم لآخر مـرة مجتمعين تسمعون لى وأنا أتحدث عن نسرى . — لقد مات لهذا الحديث داموكليس ، فلندع الموتى . . . ومع ذلك فبسببه ، بل بفضل موته قتلت نسرى . . .

فتصايح الناس : قتل نسره ! ! !

— و بهذه المناسبة استمعوا لهذه القصة . . . وهبونى لم أقل شيئا .

١

فى البدء كان تيتير .

وكان تيتير وحده يعانى السأم وقد أحاطت به المستنقعات . — وهنا مر مينالك فوضع فكرة فى رأس تيتير وألقى حبة فى المستنقع أمامه . وكانت هذه الفكرة هى الحبة وكانت هذه الحبة هى الفكرة . و بمعونة الله نبتت الحبة وأصبحت نبتة ضئيلة. وكان تيتير فى المساء والصباح يحثو أمامها ويشكر الله الذى وهبها له . وهذه النبتة نمت . وإذ كان جذرها قويا فما أسرع ما أيبست الأرض من حولها ، بحيث وجد تيتير أرضا جامدة يضع عليها قدميه ، ويسند إليها رأسه ويقوى عمل يديه .

فلما بلغت هذه النبتة قامة تيتير استطاع تيتير أن يذوق بعض اللذة بالنوم فى ظلها . وإذ كانت هذه الشجيرة بلوطة فقد كان من الطبيعى أن تعظم جدا ، حتى عجزت يد تيتير عن أن تقوم وحدها بتنقية الأرض وعزقها حول هذه البلوطة ، وبسقى الشجرة وتنظيفها وتقليمها والعناية بها وصيانتها من الدود واجتناء ثمراتها الكثيرة المختلفة

فى الفصل الملائم لذلك . فاستعان إذن بمنق وعازق ، وساق ، ومنظف ، ومقلم ، ومهذب ، ومشذب ، وذائد للدود ، وبعض الغلمان الذين يحسنون العناية بالفاكهة . وإذ كان على كل واحد من هؤلاء أن يقصر جهده على ما كلف من عمل فقد كان من المأمول أن يكون كل منهم متقنا لعمله .

ولتنظيم دفع الأجور لهؤلاء الناس احتاج تيتير إلى حاسب كما احتاج إلى خازن يشاركه فى العناية بثروة تيتير ، التى جعلت تنمو بنمو شجرة البلوط .

وقد شجر بعض الخلاف بين المشذب والمهذب حول توزيع عمليهما ، فعرف تيتير الحاجة إلى حكم ، واستعان هذا الحكم بمحاميين : أحدهما مدع والآخر منكر ، واتخذ تيتير مسجلا يقيد الأحكام . وإذ كانت الأحكام إنما تسجل لتنفع وليستعان بها فى مستقبل الأيام فقد اتخذ تيتير حافظا للأحكام . وقد جعلت الدور ترتفع على الأرض شيئا فشيئا . ولم يكن بد من شرطة لحفظ الأمن ، ومن شرطة لحماية الآداب .

وقد ثقل العمل على تيتير فأخذ يحس ثقل المرض ، وقد دعا الطبيب فوصف له الزواج — وإذ لم يكن تيتير يستطيع أن ينهض وحده بأعباء هؤلاء الناس الكثيرين ، فقد اتخذ له مساعدا ، ونشأ عن ذلك أن أصبح هو عمدة . ومنذ ذلك الوقت لم يبق له إلا شئ قليل من فراغ ليتصيد السمك من نافذة بيته التى ظلت مطلة على المستنقعات .

وقد اتخذ تيتير أيام أعياد يباح فيها لشعبه أن يلهو . وكان اللهو يحتاج إلى نفقة كثيرة ، وكان كل واحد من أفراد الشعب قليل المال لا يستطيع أن يقرض الناس جميعا ، فبدأ تيتير بجباية بعض المال من كل واحد .

وقد قامت شجرة البلوط فى السهل (فلم تتحول الأرض برغم المدينة وبرغم الجهود التى بذلها هؤلاء الناس الكثيرون عن طبيعة السهل) وقد قامت الشجرة فى السهل بحيث كان أحد جانبيها فى الظل والآخر معرضا للشمس . وكان تيتير يصدر أحكامه فى الجانب الظليل ويقضى حاجته الطبيعية فى الجانب الآخر .

وكان تيتير سعيدا لأنه كان يشعر بأنه ينفع الناس بحياته الحافلة بالأعمال .

٢

وجهد الانسان قابل للاستثمار . فقد كان نشاط تيتير يزداد بفضل مايلقى من النجح . وكان حذقه الطبيعى يغريه بأعمال أخرى ، فجعل يعنى بتأثيث داره وفرشها وتهيئتها للسكنى . وقد أعجب الناس بحسن تنظيمه للاستار وتهيئة كل إداة لما يسرت له . وكان ماهراً بارعا فى التجربة ، بل هو قد اخترع مشاجب معقوفة يعلق عليها الاسفنج ، ثم لم تمض أربعة أيام حتى تبين أنها غير ملائمة بحال من الأحوال .

وأقام تيتير إلى جانب حجرته حجرة لمصالح الشعب العامة . ولما كان المدخل مشتركا بين الحجرتين ، لم يكن من الممكن أن تطرد المدفئتان الدخان معاً ، فكان ايقاد إحداهما فى أوقات البرد يشيع الدفء فى حجرة والدخان فى الحجرة الأخرى . فتعود تيتير إذا أراد أن يوقد النار أن يحتفظ بنافذته مفتوحة .

وكان تيتير يحمى كل شئ، ويعمل على انتشار أنواع الحيوان ، فانتهى به الأمر إلى أن رأى الديدان تسعى فى مسالك حديقته متكاثرة ، حتى أشفق أن يحطم منها واحدة فلم يكن يدرى أين يضع قدمه ، واضطر آخر الأمر إلى ألا يخرج إلا قليلا .

وقد أنشأ مكتبة دائرة ردعا إليها مؤجرة واشترك عندها فى هذه المكتبة . وكانت هذه المؤجرة تسمى أنجيل، فتعود أن ينفق عندها السهرة مرة كل ثلاثة أيام . وكذلك تعلم تيتير ما بعد الشيعة والجبر والعلم الالهى . وقد أخذ تيتير وأنجيل يعنيان معا فى نجح ببعض الفنون الجميلة الرفيعة . وأظهرت أنجيل ذوقا خاصا فى الموسيقى ، فاستأجر بيانو مديلا ، وجعلت أنجيل تعزف عليه مقطوعات كان ينشئها من أجلها بين حين وحين .

وكان تيتير يقول لأنجيل : — إن هذه المشاغل الكثيرة ستهلكنى ؛ فقد بلغت من الاعياء غايته ، و إنى لأحس الفناء يسعى فى ، و إن هذا التضامن ليزيد ضميرى يقظة وتحرجا ، فاذا زادا نقصت . ما العمل ؟

قالت له أنجيل :

— فلو سافرنا ؟

— لا أستطيع أنا . تمنعنى من ذلك شجرة البلوط .

قالت أنجيل :

— فلو تركتها !

— أترك شجرتى ! أتقدرين ذلك ؟

— ألم تكبر بعد بحيث أصبحت تستطيع أن تنمو وحدها ؟

— ولكنى موصول بها .

قالت أنجيل :

— فانفصل عنها .

وبعد قليل من الوقت استيقن تيتير أن أعماله وتبعاته وشواغل ضميره وشجرة البلوط لا تمسكه ، فابتسم وتوسم مهب الريح وانطلق وقد استصحب الخزانة وأنجيل . وهبط نحو آخر النهار الشارع الذى يؤدى من المادلين إلى الأوبرا .

٣

وكان منظر الشارع فى ذلك المساء غريبا يؤذن بأن شيئا شاذا رهيباً يريد أن يحدث . وكان جمهور ضخم جاد قلق يزدحم قد اكتظ به الافريز وكاد يسيل إلى الطريق التى كان يحميها شرط باريس وقد اصطفوا فى نظام متقاربين . وكانت الأرصفة أمام المطاعم تظهر مسرفة فى السعة لكثرة ما صف عليها من الموائد والكراسى ، فتزحم الطريق وتجعل الحركة شيئا مستحيلا . وربما ارتقى أحد النظارة كرسيه لحظة يدفعه إلى ذلك تطلعه ، ثم لا يلبث أن ينزل حين يدعى إلى النزول . وكان واضحا أن الناس جميعا كانوا ينتظرون . وكان الشعور عاما واثقا بأن شيئا سيهبط عند شاطىء الافريز ساعيا على الطريق التى تحميها

الشرط . وبعد مشقة عظيمة وجد أنجيل وتيتير مائدة ودفعا لها أجراً عالياً وجلسا إلى قدحين من الجعة وسألا الخادم :

— ماذا ينتظر الناس ؟

قال الخادم :

— من أين عاد سيدى ؟ ألا يعلم سيدى أن الناس ينتظرو صليبيه ؟ إنه يمر بين الخامسة والسادسة . . . وانظر ، واسمع : يخيل إلى أن مزاميره ...

وارتفع من أعماق الشارع صوت نحيل من أصوات القصب ، فرجع الجمهور الذى ازداد لحسه إرهافا وعظم الصوت ودنا . قالت أنجيل :

— إن هذا لمؤثر جدا !

وكانت الشمس متهالكة ترسل أشعتها من أقصى الشارع إلى أقصاه . ورئى ميليبيه كأنما تنزل من روعة الغروب وهو يتقدم وصوت مزماره يسعى بين يديه . ولم يكن يتميز منه فى أول الأمر إلا مظهره ، فلما دنا قالت أنجيل :

— يا له فاتنا خلاباً !

وقد بلغ ميليبيه مجلس تيتير فقطع غناء مزماره ، ووقف فجاءة ورأى أنجيل واستبان كل إنسان أنه كان عريان . قالت أنجيل وقد مالت إلى تيتير :

— ما أجمله! وما أحسن اعتدال قوامه! وما أخلب مزاميره للعقول !

وكان تيتير يجد بعض الضيق . قالت أنجيل :

— سله إلى أين يذهب .

قال تيتير :

— إلى أين تذهب ؟

أجاب ميليبيه :

— *Eo Romam*

سألت أنجيل :

— ماذا يقول ؟

تيتير : — لن تفهمى ياصديقتى .

قالت أنجيل :

— ولكنك ستفسر لى .

فعاد ميليبيه يقول :

— *Romam, urbem quam dicunt Romam*

أنجيل : — ما أعذب ما يقول ! — ما معنى هذا ؟

تيتير : — أؤكد لك يا عزيزتى أنجيل أن هذا ليس من العذوبة بحيث تظنين . فهو لا يزيد على أن يقول إنه ذاهب إلى روما .

قالت أنجيل :

— روما ! — كم أحب أن أرى روما !

وأخذ ميليبيه أعواده واستأنف لحنه الساذج .

ولم تكد أنجيل تسمع الصوت حتى شغفت ثم ارتفعت ثم نهضت ثم دنت . وإذ كان

ميليبيه يعطف ذراعه فقد أخذتها ، ثم سعيا فى الشارع فنأيا فازدهيا فاستخفيا فى الأصيل الذى ليس وراءه شئ .

وقد أطلق للجمور عنانه ، فجعل يضطرب فى اصطخاب شديد . وكنت تسمع الناس يتساءلون من كل جانب : — ماذا قال ؟ — ماذا عمل ؟ — من هذه المرأة ؟ ولما ظهرت بعدذلك بقليل صحف المساء تخطفها استطلاع عنيف كأنه الاعصار ، وعرف الناس فجاءة أن هذه المرأة هى أنجيل ، وأن ميليبيه هذا رجل عريان ذاهب إلى إيطاليا .

هنالك خبا حب الاستطلاع ، وسال الجمهور كأنه الماء الحر منصرفا عن الشارع الأعظم . — ورأى تيتير نفسه وحيداً قد أحاطت به المستنقعات من جميع جهاته .

فهبونى لم أقل شيئاً .

وعصف بالسامعين ضحك لا سبيل إلى وقفه .

قال بروميتيه وهو يضحك :

— أيها السادة إنى لسعيد حين أرى قصتى تلهيكم . فقد استكشفت سر الضحك منذ مات داموكليس . — وقد فرغت الآن أيها السادة . فلندع الموتى يدفنوا الموتى ، ولنسرع إلى تناول الغداء .

وأخذ الخادم باحدى ذراعيه ، وأخذ كوكليس بذراعه الأخرى ، وخرجوا جميعا من دار القبور . ولما تجاوزوا الباب تفرق سائر الجماعة .

قال كوكليس :

— معذرة إليك . فقد كانت قصتك ظريفة وقد سليتنا . . . ولكنى لم أتبين صلة بينها وبين ما نحن فيه . . .

قال بروميتيه :

— لو تبينت الصلة لما ضحكت كما تضحك الآن . لا تلتمس لهذا كله معنى ذا خطر .

— إنما أردت أن أسليكم . وأنا سعيد لأنى بلغت ما كنت أريد . ألم أكن مدينا لكم بذلك ؟ لقد أملتكم فى حديثى الأول .

وبلغوا الشارع .

قال الخادم :

— إلى أين نذهب ؟

— إلى مطعمك إن شئت تذكارا للقائنا الأول.

قال الخادم :

— لقد جاوزته .

— لا أعرف الواجهة .

— لأنها جديدة الآن .

— أنسيت أن نسرى . . . إطمئنا : لن يحطمها مرة أخرى .

قال كوكليس :

— أحق إذن ما كنت تقول .

— ماذا ؟
— أنك قتلته .
قال بروميتيه :
— وأننا سناكله . . . أتشك فى ذلك ؟ ألم تنظر إلى ! أكنت أستطيع أن أضحك فى حياته ؟ ألم أكن شديد النحافة ؟
— من غير شك .
— لقد كان يأكلنى منذ زمن طويل . فقد آن لى أن آكله .
إلى المائدة! هلم ! إلى المائدة يا سيدى ! — أيها الخادم . . . لا تخدم : وخذ مكان داموكل لنذكره للمرة الأخيرة

وكان الغداء أشد مرحا مما يباح لنا أن نصوره هنا . وكان النسر شهيا لذيذاً .
وسأل سائل :
— ألم يكن فى وجوده نفع ما ؟
— لا تقل هذا يا كوكليس ! — فان لحمه قد غذانا . — كنت أسأله فلا يجيب . . . وأنا آكله غير واجد عليه . ولو قد عذبنى أقل مما عذبنى لكان أقل سمنا مما هو . ولو قد كان أقل سمنا لوجدنا فى أكله لذة أقل مما نجد .
— ماذا بقى من جماله الرائع أمس ؟
— لقد احتفظت بريشه كله .

وبريشة من هذا الريش أكتب هذا السفر الصغير .
فسعيت أيها الصديق النادر ألا تراه رديئاً .

خاتمة

تحاول أن تبين للقارئ
أن هذا الكتاب إن كان كما هو
فليس ذلك من ذنب صاحبه

فالكاتب لا ينشئ من الكتب ما يريد
يوميات جونكور

كانت قصة ليدا قد ملأت الدنيا ضجيجاً ، وبنت لتندار مجداً عظيما ، حتى لم يكن مينوس يحفل بزوجه باسيفاييه حين كانت تقول له : « ماذا تريد؟ أما أنا فلا أحب الرجال . »

ولكنها قالت بعد ذلك : « هذا شئ يغيظ ، (على أنه لم يكن يسيراً !) قد كنت آمل أن إلهها تقمصه . — ولو عنى زوس بهذا الأمر لكنت خليقة أن ألد ابناً إلهيا . ولكنى بفضل هذا الحيوان لم أهد إلى الدنيا إلا عجلا . »